عصفور القلب

كان حبيسا في صدري موجة عاتية من الرغبة في الإجهاش بالبكاء، بأعلى صوت، تنتابني وتعتريني.

أترك لها ذراعَيّ وكامل جسدي، في استسلام غريب. ذراعاي بجانبي، غير عابئة، أغوص لأطفو، وأغوص ثانية كجثة، تتبعثر حولي، تتراقص كلما هبَّ الهواء ثقيلا، تلتصق بوجهي ورأسي، تخفي حتى بصيص الضوء المتبقي قبل مجيء الليل، ولا تتبقى سوى أحرف ملونة بمختلف الألوان، تتناثر حولي، تصنع بركة على مقاس جسدي، تشدني في اتجاه الشاطئ، أعتدلُ باكية كمصدوم، وأعود طفلة، تقف أمام عينيّ، وقد أحسّت أن السنوات الماضية سحبت منها حيلتها وقدرتها على الصمود، الذي اعتادته، والجرأة على الفعل، بل وعلى الحلم.. تقف مهشمة، كدمية دمرها القدم، لكنها لازالت تحمل نفس ملامحي.. مددتُ يدي أمسح دمعاتها، تستحلفني، في بوح صامت، أن أحملها، وأن أرحل بها، معللة بسأمها من السير في نفس ذاك الطريق، ورغبتها في أن يخلو صدرها من تنهيدات يومية عبثية مؤلمة، تستجدي

ارتداء ملامحها للمرح القديم، وأخبرتنى أن صوتي سوف يصدح ثانية، بأغنيات وأناشيد كدتُ أنسى مضامينها.

تحاوطني الآن أسراب من الطيور، علها عصافير. أكبرهم اقترب مني، وأخذ يعمل منقاره في صدري بلطف بالغ، يفتح ثقبا في صدري، ويطير من داخلي عصفور آخر كان متربعا بين شغاف القلب. وقف أمامي لا أدري في تحدٍ، أم في عتابٍ صامت لسجني له سنوات طويلة، أم لحرماني إياه من الصحبة، التي تلتف الآن تصنع دائرة ملونة منشدة مبهجة.

نظرتُ إلى الثقب المفتوح في عمق صدري، ساويتُ أطرافه بلطف، فتفاجأت للتو، بانزياح الألم الذي صاحبني سنينا، بعدها انكمش جسدي، بت في حجم أحد العصافير التي احتفت معي وبي، لكن جناحي كانا أطول قليلا، فردتُّهما على الجانبين، وأضحت العصافير تتناوب الحط عليه، وتلتقط ما أنثره لها من طعام.